تقديم الصفة على الموصوف

للأستاذ عبد الحق فاضل

القاعدة فى العـــربية هى أن الصفـــة تلى الموصوف وتجاريه فى مختلف حالاته ولكـــنى لحظت باستغراب كبير أننا كثيرا ما نقدم الصفة على الموصـوف دون أن نشعر ، مخالفين بذلك قواعد اللغة ومنطق الاشياء أيضا.

قالت العرب فى الممدوح مثلا : انـه طويل النجـاد رفيع العماد . والمقصود طبعا أن نجاده طـويل وعماده رفيع ، ولكن الصفة هنـــا سبقت الموصوف واضيفت اليه ، والاضافة تعنى الملكية او العائدية ، فقولـــك (طويل النجاد ورفيع العماد) يشبه من ناحية القواعـد والاعراب قولك نجاد السيف وعماد البيت ، فأمـا أن السيف له نجاد والبيت له عماد فأمر معقول . إلا أنـه لا يمكن أن يكون النجاد له طويل (او شىء طويل) لان المقصود من هذا التعبير ان النجاد هـــو الطويل ، ولا يمكن أن يكون العماد له (شىء) رفيع لانه هـو الشىء الرفيع ، واما المعقول ان يكون النجاد (له طول) والعماد (له رفعة) والواقع أن هذا الخلط أهون ما فى الامر . فسيأتينا فى ثنايا البحث ما هو أدهى .

فمن أين جاء هذا النشاز المنطقى النحوى فى لغتنا ، فى حين أن القاعدة العامة ، التى تعد مـــن خصائص العربية واخواتها اللغات السامية ، تجرى على سنـــة تقديم الصفة وتأخير الموصوف خـــلافا للغات الآرية التى تجرى القاعدة فيها على عكس ذلك ؟.

الارجح عندى أن هذا قد جاء من تأثير بعض اللغات الاعجمية (I) فان صـــح ذلـــك ، فان بعض العـــرب وأخص منهم أهل العراق وشرقى الخليج العربى ، قد تأثروا باحدى اللغات الآرية ـ السنسكريتية ـ وأخص منها الفارسية لمجاورتها لهم ، فقالوا : (طويل نجـاد) بدلا من نجاد طويل ، و (رفيع عماد) بدلا من عمـــاد رفيع .. على غرار تأثر بعض المتأدبين فى جيلنا هـذا باللغات الغربية ممن قالوا (تدبير الامـــر بشكل او بآخر) ، وقالوا (التقدم أكثر فأكثر) ، بل قالوا (انـه جيد جدا ليكون صادقا) !

وانما اتهمنا عرب العراق وشرقى الخليج العـربى بالتأثر بالفارسية ـ وبذلك برأنا ضمنا عـرب الشام من التأثر فى هذا الشأن باللاتينية ـ لان اهل الشام لا يمكن أن يكونوا المسؤولين عن هذه البدعة ، لسبب بسيط هو أن الصفة فى اللاتينية تلى الموصوف كمـا فى العربية وتجاريه افرادا وجمعـــا وتذكيرا وتأنيثا ، وأما فى الفارسية فالقاعدة القديمة فيهـــا ـ كـما فى أمها السنسكريتية ـ تقديم الصفـــة على الموصوف ، ان قول العرب : لذيذ الطعم (بدل طعمـــه لذيـذ) .. وحسن الطالع (بدل طالعه حسن) .. وبعيد النظـــر (بدل نظره بعيد) .. وسيء الظن (بدل ظنـــه ســـيء) .. ظاهرة لا أكاد أجد لها تعليلا الا التأثر بالفرس فى

(I) يراجع بحث للكاتب في (تاثير الاعاجم في لغة العرب) .

قولهم : **خوش مزه ، ونيك بخت ، ودوربين ، وبدكمان**. .. بنفس المعاني وبنفس ترتيب الالفاظ . (2)

ان اقحام هذه القاعدة الاعجمية في اللغة العربية التي تناقضها تمام المناقضة في بعض القواعد الاساسية قد أحدث من الارتباكات والاختلاطات ما لم يخطر يوم اقحامها على بال ، لقد اصبحت هذه (التقليعة) الآرية وسط اللغة السامية أشبه ببيضة البط توضع تحت الدجاجة مع بيضها الدجاجي ، فتنجب فرخ بط بين فراريخ دجاج ، واذا بهذا الفرخ الناشز يحتاج الى مداراة خاصة تقلب نظام البيئة في بعض الشؤون عقبا على رأس ، انه يسلك آنا سلوك البط لانه بط ، وآونة سلوك الدجاج لانه يعيش في بيئة الدجاج ، وحينا سلوكا فوضويا لا اتزان فيه ، لا هو بطي ولا دجاجي ، لانه حائر بين طبيعته البطية وبيئته الدجاجية .

يلاحظ قبل كل شيء ان الصفة لا اعراب لها في الفارسية فلا يلحق آخرها تحريك أما في العربية التي لا تعفي اسما من الاعراب فالقاعدة الاساسية أن تكون **الصفة تابعة للموصوف اعرابا وتذكيرا وتأنيثا ، وافرادا وتثنية وجمعا** ، وهي تبقى طيعة تابعة لسيدها الموصوف ما دامت متأخرة عنه وفق القاعدة العربية ، لا تعاكس غيرها من الكلمات ولا تخرج على منطق ، ولكنهم ما يكادون يقدمونها على الموصوف ـ تقليدا للاعاجم ـ حتى يجن جنونها فتخرج على كل ما يصطدم بها من قواعد مرعية وعرف مقبول .. هل أقول مثل المرأة حين قدموها في العصر الحاضر على الرجل تشبها بالغربيين .. أم الامثل ألا أقول ذلك بعد أن كنت من المتحمسين في الدفاع عن (حقوق) المرأة ؟

ان أول ما فعلته عند تقديمها ـ أعني الصفة ـ هو اعلانها الاستقلال التام عن متبوعها الموصوف ، في **الاعراب** ، وصارت تتصرف تصرف سائر الاسماء المستقلة ، فهي مرفوعة او منصوبة أو مجرورة ، لا تبعا لموصوفها ، ولكن وفقا لظروفها الخاصة ، أعني وفقا لموقعها من الكلام بصرف النظر عن الموصوف ، ولم تكتف بالاستقلال عنه بل حكمته هو بنوع من التبعية المقيدة فصارت تجره دائما ، أعني تكسر آخره بالاضافة هل اعود ثانية الى التشبيه بالمرأة فأقول ان الصفة كالمرأة التي لا تسمح لزوجها حتى باتباعها الى حيث تذهب ، كما كان الموصوف يفعل بصفته حين كان يتقدمها ، بل تحكم عليه بملازمة البيت دائما .

ثم هي ـ الصفة ـ بعد أن استقلت عن موصوفها اعرابا صارت في بعض الاحيان تتبعه تأنيثا وتذكيرا في مثل قولنا : فضليات السيدات وفضلاء السادة ... ولكنها تتمرد عليه أحيانا أخرى فتبقى متشبثة بزي التذكير مهما كلف الامر ، في مثل قولك : اننا نقدر **كريم** عاطفته **وشريف** خصاله ، ومثل قولك : **قليل** المعرفة **كبير** الثروة .. فقد ظلت الصفة هنا مذكرة مع موصوفاتها المؤنثات .

وهي أحيانا تتمسك بصيغة المفرد بعناد لا مبرر له حين يكون موصوفها مثنى أو جمعا ، في مثل قولك : **أسيل** الخد ، **حلو** النظرات .

بل انها تتجاهل الموصوف في جميع حالاته أحيانا ، من تذكير وتأنيث وافراد وتثنية وجمع ، متشبهة في كل ذلك بمن لا علاقة لها به وهو مالك الموصوف ان كان له مالك ، من ذلك قولك : الوزير غزير العلم ، فالصفة هنا تقطع كل صلة لها بموصوفها العام منذ صارت خبرا للوزير (المبتدأ) .

ونحن نسميها **صفة** باعتبار ما كان ، أي انها قبل تقديمها على الموصوف كانت صفة بالفعل ، حقيقة وحكما ، أو **نحويا وعقليا** ، اما عند تقديمها فيتغير اسمها هذا **نحويا** وتصبح فاعلا أو مفعولا أو مجرورا وغير ذلك من حالات الاسماء في الاعراب .

وهي قد تعود فتصبح صفة أيضا ، ولكن لا لموصوفها الحقيقي الذي تقدمت عليه ، بل لصاحبه كما كان شأنها حين صارت خبرا له في المثال السابق . وهذا من أغرب أطوارها ان لم يكن أغربها طرا ، ذلك بأن موصوفها الجديد قد يكون مغايرا لها ، او مناقضا كل

---

(2) زيادة في الايضاح : (**خاش** = طيب ، **مزة** = الطعم) (**نيك** = حسن ، **بخت** = الطالع والحظ) (دور = بعيد ، **بين** = البصر) ، **بد** = سيء ، **كمان** = الظن) ويلاحظ أنه لا توجد في الفارسية أداة تعريف ، فكل اسم يعتبر معرفة ما لم تميزه علامة تنكير .

المناقضة ، يتضح هذا فى مثل قولك عن فـــلان : انه **كريم لئيم** الاتباع ، **معتوه نجيب** الولد ، **غنى فقـــير** الجار ! ونحن عند اعراب هذه الصفات ملزمون نحويا بأن نقول : **(لئيم)** صفة **(كريم)** .. و **(نجيب)** صفـــة **(معتوه)** ... و **(فقير)** صفة **(غنى)** !.. خلافا لبديهيات المنطق ، وما كان مثل هذا التناقض الفادح ليقع لو أننا جرينا على القاعدة العربية فقلنا : انه كريم **أتباعه لئام** ، معتوه **ولده نجيب** ، غنى **جاره فقير** .

والصفة فى كلتا هاتين الحالتين اللتين تتجـــاهل فيهما موصوفاتها الحقيقية ــ أى عند كونها خبرا لمالك موصوفها فى الحالة الاولى أو صفة له فى الحالة الثانية ــ تكون تابعة لمالك الموصوف هذا كما قلنا فى جميع حالاته ، كالمرأة ــ أيضا ــ اذا هـــى تركت زوجهـــا وتعلقت برئيسه ، وعلى هذا يقال : هو (الرئيس مثلا) **كثير** المال ، وهى (المديرة مثلا) **كثيرة** المال ... وهمـــا **كثيرا** المال ، أو **كثيرتا** المال ... وهم **كثيرو** المال .. وهن **كثيرات** المال ، والمقصور وصفه فى جميع هذه الحالات الست هو المال ، المذكر المفرد ، ولكن الصفة **(كثـير)** تتجاهله تماما وتتبع أصحاب المال وصاحباته فتغـــير لبوسها معهم فى ست حالات مختلفة ، باعتبارهم هم الموصوفين (نحويا) وان لم تكن لاى واحد أو واحـدة منهم علاقة بصفة **(الكثرة) هذه** ، اما المـــال المقصود وصفه فى جميع الاحوال فهو قابع فى مكـــانه ، مقيد بالاضافة ، مكسور الخاطر ، أعنى مكسور الآخر .

كل هذا جاء من اقحام قاعدة أعجمية فى لغة عربية **يقوم كيانها وطرائق تركيب الكـــلام فيها على قاعدة** معاكسة ، فالصفة عندمـــا قدمت ووضعت فى غـــير موضعها التقليدى وأخذت مكان موصوفها جابهتها حالات لم تألفها ومآزق لم تكن تتعرض لهـــا عندما كـــانت ملحقة بموصوفها ، فاضطرت الى تحوير كل قاعـــدة نحوية تقف فى طريقها وسحق كـــل ضرورة منطقيـــة تهدد وجودها ــ دفاعا عن نفسها على سنة البقاء .

وان كان قول المحدثين اليوم انه (يتقدم أكثر فأكثر) و (يدبر الامر بشكل او بآخر) ينبـــو عن اذواقنـــا ويؤذى أسماع بعضنا كما يؤذينا اللحن فى الكلام من جر منصوب او رفع مجرور ، فانما هى السليقة ، أى العادة اللغوية اما ناشئة الجيل الذين لم تتعود أذواقهم ما يخالف أمثال هذه التعابير المستحدثة الدخيلة ولـــم تتكون لديهم سليقة تناقضها ، فلا يجدون فيها غضاضة ولا نشازا ، ومتى كبروا كان استعمالها عندهم هـــو العادة والسليقة ، ثم هم يخلقونها لذراريهم تراثا مـــن تعابير سائغة مستحبة ، يؤذى أذواقهم الخروج عليها ، ولو الى الافصح الاقوم .

كذلك العرب الاولون ، لا بد ان أمثال تعابير طويل النجاد ، وشديد البأس ، وأعزر الشدقـين ، وأحوص العينين ، وأقبح الثنايا ، وذلفاء الانف ، وقب البطون .. قد آذت أسماعهـم أول الامـــر لاصطدامها بسلائقهم ، ولعلهم قد سخروا من المتكلمين بها ووصموهم بالرطانة والعجمة ثم استساغتها الاجيال اللاحقة بالرغم مـــن لا عروبتها ولا منطقيتها .

ويروى الجاحظ أنه سمع غلاما أعجميا يقول (سند نعال) يريد (نعالا سندية) كأنما يروى لنا ملحة نادرة، دون أن يخطر له على دقة ملاحظته وفقاهته فى العربية أن العرب العرباء تفعل ما هو أسوأ اذ تقول : قليـــل ماء ، وقصير ذراع ، وطويل باع ، وباطل ثناء ، ولئيم أعمام واخوال .. وما الى ذلك ، وانما قلت ان فعـــل العرب أسوأ بسبب اللامنطقية واللانحوية التى مرت بنا شواهد غير قليلة منها ، بالاضافـــة الى لا عروبتها .. على حين انها فى اللغات الآرية أصيلة متسقة مع قواعد النحو ومنطق الاشياء .

ويلوح لى من تركيب قول الغـــلام الاعجمى (سند نعال) أن ترجمته الدقيقة هى (نعال السند) لا كمـــا ترجمها الجاحظ (نعـــالا سندية) أعنى أنه تـــركيب اضافة لا نعت ، فلو قد كثر انثه أمثال هـــذا الغـــلام الاعجمى بين العرب ، أو كثر العرب المتأثرين بلغتـــه الاصلية السنسكريتية لوجدنا أبناء قحطـــان وعدنان يقدمون المضاف اليه على المضاف أيضا ، ولو قد سرت عدوى ذلك فعمت العرب أجمعين كمـــا عمتهم عـــدوى تقديم النعت على المنعوت ، لما وجد الجاحظ فيها مـــا يستحق التدوين او يلفت النظر .

وأكبر ظنى أن آفة تقديم المضاف اليـــه أيضا كانت قد أصابت بعض العرب ، ربما أكثر من مرة فى أكثر من مكان ، ولكن عدواها لم تتمكن مـــن الانتشار ولا البقاء ، لانها بالرغم من عدم اصطدامها بالمنطق تحدث من اللبس ما لا يمكن احتمالها معه ، فمعلوم أن الوسيلة الوحيدة للتفريق بين المضاف والمضاف اليه فى العربية

هى تقديم هذا على ذاك ، فاذا عكسنا الوضع انعكس المعنى فى كليهما ، كما فى مثل قولنا : **حارس البيت** ، بدل بيت الحارس ... **وزوج المرأة** ، بدل امرأة الزوج .. **وكعبة الرب** ، بدل رب الكعبة على حين أن تقديم الصفة على موصوفها ـ بالرغم من كل ما تقدم بنا ومن تغير عائديتها فى الاعراب ـ لم يغير فى ذهن السامع ما قصد اليه المتكلم من كلامه ، فلم تلتبس الصفة بالموصوف ، أعنى لم تاخذ مكانه فى الذهن ولو انها أخذت مكانه فى الاعراب .

ان شعراءنا وادباءنا يؤثرون على كل حال أن يستعملوا الصفات فى زيها الدخيل الفوضوى هذا ، فهم حين يريدون التفاصح يتنكبون الطريقة العربية الاصولية القويمة عزوفا عن استوائها وبساطتها وصحتها ، وحبا بما تغذيهم به الطريقة الاخرى من شذوذ وتمرد ولا معقولية يحسون بها احساسا غامضا لا يفقهون حقيقته ، مثلما يستهوينا فى المحبوب بعض مفاتن غير المفاتن الوتيرية (الروتينية) فى حركاته أو نبراته تفعل فعلها فينا ولا نكتنه سرها .

ومهما يكن فان هذه البدعة بالرغم مما أحدثت من شغب وفوضى قد أغنت ولا شك أن هذا سيكون مصير التعابير التى أقحمها متأدبو اليوم فى العربية وما سيقحمونه منها فى المستقبل كما فعلوا فى كل جيل ، فيؤذون أذواق الجيل السابق ويزيدون الثروة اللغوية للجيل اللاحق .

ومن الغريب حقا ان اللغة العربية حين عادت فأثرت فى الفارسية بعد الفتح الاسلامى وشمل **تأثيرها الواسع العميق حتى بعض قواعد النحو** والصرف ، كان من جملة ذلك أنها طعنتها فى نفس المكان الذى تلقت طعنتها فيه من جسمها ، أعنى أنها فرضت على الفارسية اتباع الطريقة العربية القديمة فى تأخير الصفة على موصوفها ، والربط بينهما بوثاق الاضافة أيضا ـ كأنما أخذا بالثار ، وكان من نتيجة ذلك أن صار الفرس يقولون اليوم : **قصر ابيض كتاب مفيد ، مدرسة ابتدائى** مع كسر آخر الموصوف ، على طريقتهم فى الاضافة ، بالضبط كما يكسرون آخر المضاف عند قولهم **قصر سلطنة ، كتاب فلسفة ، مدرسة رقص** (3) أما فى القاعدة الفارسية القديمة فلا يكسر آخر الصفة ولا آخر الموصوف وانما يكون كلاهما ساكنا ، مثل : **بزرگ مهر** ، الذى ترجمت له كليلة ودمنة (**بزرگ** = كبير ، **مهر** = المحبة أو اللطف) ، و (**جوان بخت**) ، أى سعيد الطالع (**جوان** = شاب فتى ، **بخت** = الحظ) .

وقد نالت العربية من الفارسية فى هذا الصدد أكثر مما نالته الفارسية منها لان تبعية الصفة للموصوف ما زالت حتى اليوم هى القاعدة العامة فى العربية يجوز الى جانبها تقديم الصفة جوازا ، وقد استعملها العرب فى بعض الحالات لا كلها ، حتى كاد الامر يكون سماعيا ، وكثيرا ما يبدو نابيا فى غير التعابير المألوفة التى استشهدنا بنماذج منها ، فليس من المألوف مثلا أن يقال عجوز امرأة ، أو شجاع جندى ، بمعنى امرأة عجوز وجندى شجاع كما نقول عتيق خمر وجزيل شكر ، بمعنى خمر عتيقة وشكر جزيل ، أما فى الفارسية فقد أصبح الخروج على القاعدة القديمة هو القاعدة فى صياغة الكلام الآن ، وأصبحت التعابير المصوغة وفق تلك القاعدة القديمة أشبه بالشواذ من المصطلحات السماعية تخلفت من زواسب العهد القديم ، لا يقاس عليها .

يقع عند احتكاك الشعوب بين اللغات من الاحداث والمفارقات والنكات والحكايات ما يشبه فى طرافته وغرابته بعض الذى يقع بين البشر ، رأينا فى هذا البحث اثارة من ذلك ، وآخر هذه الطرائف التى عرضت لنا هو هذا التبادل النادر المثال ، فى نقطة بذاتها ، بين العربية وجارتها الفارسية ، الفارسية جعلت العربية تقدم الصفة على الموصوف خلافا لقواعدها النحوية فى الجاهلية والعربية جعلت الفارسية تقدم الموصوف على الصفة خلافا لقواعدها النحوية أيضا فى الاسلام ...

عبد الحق فاضل

---

(3) اخترنا هذه النماذج من الالفاظ العربية لكي يفهمها القارىء العربي ، فهي من المفردات العربية المستعملة في الفارسية ، ويلاحظ أن الاضافة في الفارسية تكون كما ذكرنا بكسر آخر المضاف ـ لا المضاف اليه كما في العربية.